

ليبرالية اليمين ضد التسلم

ونلاحظ أن الشيخ على عبد الرازق لم تهبط عليه الليبرالية فجأة ولم يكن كتابه وليداً لفكرة طارئة وإنما هو ومنذ نشأته الأولى كان واحداً من مؤسسى تيار ليبرالى تبلور فى إطار مجموعة من الشبان المستنيرين قبيل ثورة ١٩١٩ وما بعدها فقد كان على عبد الرازق وشقيقة مصطفى عضوان فى مجموعة ليبرالية تضم د. محمد حسين هيكل ومحمود عزمى وعزيز ميرهم ود. منصور فهمى وغيرهم وكان الأب الروحى لهذه المجموعة أحمد لطفى السيد. ولكى نطل على بعض أفكار هذه المجموعة نستمع الى شفيق غربال وهو ينعى هيكل "تحدث محمد حسين هيكل عن زيارته لباريس هناك فقال ومرت الأيام وأنا أرى فى مدينة النور ألواناً من الحياة تفسح أمام النظر أفق التفكير وتزيد الإنسان إيماناً بحرية العقيدة

والرأى، وبأن التعصب ذميم وأن أول واجب للإنسان أن يديم البحث عن الحقيقة" ويمضى د. غربال "لقد ترجم هيكل أجزاءً من كتاب روسو وأهداها "إلى مصر الحرة، إلى القلوب الخفاقة بمعاني الحرية والعدالة والإخاء" [مجلة اللغة العربية - (مجموعة ١٩٦٢) - كلمة شفيق غربال في تأبين الدكتور محمد حسين هيكل - ص ٢١٢ وما بعدها]. كما أصدر شقيقه الشيخ مصطفى مجلة "السفور" لتدعو الى التحرر في فهم الدين. [لمزيد من التفاصيل حول دور هذه المجموعة راجع: د. رفعت السعيد - عمائم ليبرالية (٢٠٠٢) ص ١١١ وما بعدها]. هذا هو الرجل والكتاب فماذا عن التداعيات. يتحدث محمد أركون عن الكتاب قائلاً أنه "كان يمثل موقفاً راديكالياً، أبعد من أن يكون بحثاً عن نصوص دينية تحرم الكهنوت والاستبداد، كما فعل من سبقوه كما أنه أعمق وأبعد من مجرد محاولة التوفيق بين نصوص الشريعة ومبادئ الحضارة الغربية، بل هو أول دراسة للحقيقة الدينية وارتباطها بشرعية السلطة السياسية، كما أنه أول نقد يظهر التضامن التاريخي بين الفكر الثيولوجي ومجموعة البنى السياسية والسلطوية التي استخدمت الأديان في بناء كل الإمبراطوريات" [مجلة تحولات - العدد الرابع - (١٩٩١) مقال لمحمد أركون بعنوان فك الارتباط ما بين اللاهوت والسلطة] ولعل هذه الفكرة الجوهرية هي التي أثارت الضجيج الزلزالي الصدى في المجتمع المصري والعربي والإسلامي في هذه الفترة. فإذ تعرض الشيخ لهجوم من أنصار الخلافة تحركت

شخصيات وقوى ليبرالية للدفاع عنه فأصبحت القضية كما يقولون في أيامنا قضية رأى عام.. ونقرأ فى مجلة "الهلال" "أن كل أمة إسلامية حرة لها إنتخاب من تريده حاكماً عليها، وسواء كان الأستاذ على عبد الرازق قد وفق فى أن يستند فى نظريته إلى الدين - كما يعتقد - أو لم يوفق فإن هذه النظرية تتفق وأصول الحكم فى القرن العشرين الذى يجعل السيادة للأمة دون سواها من الأفراد مهما كانت ولادتهم وميزاتهم الأخرى". [الهلال - يوليو ١٩٢٥] ويكتب سلامة موسى "لعلى عبد الرازق الحق فى أن يكون حراً يرتئى ما يشاء من الآراء دون أن يقيّد بأى قيد سوى الإخلاص" [الهلال - أكتوبر ١٩٢٥] وتكتب مجلة المقتطف "إننا نعتقد أن كل ما قاله حضرة القاضى على عبد الرازق وأمثاله قرين الصواب، وخال من الخطأ، وكذلك فإن قيام بعض المفكرين ووقوفهم موقف الانتقاد والشك يشحن الهمم ويغرى بالبحث والتنقيب" [المقتطف. أغسطس ١٩٢٥] ويجب أن نضع كل هذه الكتابات فى إطار وضع شائك فقد تكاثرت على نطاق مصر والبلاد العربية فى ظل الدعوة لمؤتمر الخلافة التى روجها بعض الأزهرين لحساب فؤاد وهو المؤتمر الذى انتهى إلى الفشل فى إطار هذا الضجيج وتحديدًا فى مايو ١٩٢٦.

لكن ما يستحق التوقف والدراسة المتأنية هو أن أشد لطمه وجهت إلى الكاتب والكتاب جاءت من سعد زغلول الزعيم ذو المهابة ورئيس الحزب الذى يفترض البعض أنه كان على الدوام حزب

الليبرالية المصرية.. ويكتب سعد زغلول "قرأت كثيراً للمستشرقين
 ولسواهم فما وجدت من طعن منهم فى الإسلام بحدة كهذه الحدة
 فى التعبير على نحو ما كتب الشيخ على عبد الرازق.. فعرفت أنه
 جاهل بقواعد دينه بل لبسيط من نظريته" [راجع لمزيد من المعلومات
 حول موقف سعد زغلول ضد الكتاب د. غالى شكرى - النهضة
 والسقوط فى الفكر العربى الحديث - ص ٢٤٤ وما بعدها] كما
 أسرع الشيخ محمد نجيب المطعنى بإصدار كتاب يناقض به كتاب
 الإسلام وأصول الحكم ويقول فيه أن الشيخ على عبد الرازق أراد به
 أن يعطل الأداة التى بها يمكن إحداث التغيير والتطور فى الإسلام،
 كما أنه يقضى فى آخر الأمر إلى إنكار الشريعة ذاتها" [محمد
 محمد حسين - المرجع السابق ص ٨٥] وتعالى نبره التهديد
 والتحريض فيكتب رشيد رضا "لا يجوز لمشيخة الأزهر أن تسكت
 عنه لئلا يقول هو وأنصاره أن سكوتهم عنه إجازة له أو عجز عن
 الرد عليه" [المنار - ٢١ يونيو ١٩٢٥ - مجلد ٢٦ - ص ١٠٤].
 وينتفض الشيخ الخضر حسين ليصدر كتاباً بعنوان "نقض كتاب
 الإسلام وأصول الحكم" ثم يهديه بكتابة تحريضية إلى "خزانة حضرة
 صاحب الجلالة فؤاد الأول ملك مصر الأعظم برجاء التفضل
 بالقبول" ثم "والصلاة والسلام على النبى وآله وكل من حرس
 شريعته بالحجة والحسام" كما أصدر الشيخ الطاهر عاشور كتاباً
 بعنوان "نقد علمى لكتاب الإسلام وأصول الحكم" [١٣٤٤هـ].
 وقبل أن نتحول إلى ردود الفعل الرسمية وتداعياتها يتعين أن

نتوقف عند مفارقة ظلت تمثل لغزاً استوجب تحليلات عديدة .
فالحزب الذى ساند أحد مؤسسيه وهو الشيخ على عبد الرازق هو
حزب الأحرار الدستوريين الذى جرى تصنيفه على الدوام على أنه
المدافع والممثل لمصالح كبار الملاك العقاريين، وهو الحزب الذى كان
منذ بدايته الأولى وعلى يدي أحمد لطفي السيد [حزب الأمة]
يرفض أى فعل فاعل ضد الاحتلال منذ مطلع القرن مطالباً بأن تبدأ
مصر رحلة الاستقلال عبر مسيرة طويلة وممتدة تستهدف نشر
الأخلاق والنهوض بالأسرة، ثم تصادم فى شكله الجديد [الأحرار
الدستوريين] مع سعد زغلول وإنحاز الى الملك فؤاد وحاول قدر
استطاعته أن يلجأ إلى آية تسوية مع الاحتلال .. هذا الحزب ساند
الكتاب والكاتب متخذاً موقفاً ليبرالياً شجاعاً بينما سعد زغلول
يقف ضده .

وهذه الظاهرة ظلت على الدوام معلقة أمام المؤرخين والسياسيين
الى أن تولى محمد محمود باشا رئاسة الحزب فإنهال بقبضة قوية
على كل مقولات الديمقراطية بحيث تناقض تماماً مع أفكار
ومقولات مؤسسية . ولكن الأمر لم يزل بحاجة الى دراسة أكثر
تدقيقاً لفهم حقيقة هذا التناقض .

ولم يزل زلزال الإسلام وأصول الحكم قادراً على التحرك .
ولم تمض حملة التحريض ضد كتاب الإسلام وأصول الحكم بلا
أثر . ولم يكن غضب فؤاد على الكاتب الذى أفسد عليه حلم
الترشح للخلافة بلا نتيجة فقد اجتمعت هيئة كبار العلماء بالأزهر

برئاسة الشيخ محمد أبو الفضل شيخ الأزهر وبحضور ٢٤ عضواً واستدعت الشيخ على وحاكمته باعتبار أنه حاصل على شهادة العالمية من الأزهر وأنه قاض شرعى . وتحدث الشيخ إمام الهيئة المتربصة به وحاول جهد طاقته أن يدافع عن نفسه دون جدوى فقد كان الأمر مرتباً ومدبراً وبعد ساعتين من جدل أصدرت المحكمة حكمها وجاء فيه "اجتمعت هيئة كبار العلماء فى ١٢ أغسطس ١٩٢٥ وقررت نزع شهادة العالمية من الشيخ على عبد الرازق، ومحو اسمه من سجلات الجامع الأزهر، وطرده من كل وظيفة لعدم أهليته للقيام بأية وظيفة دينية أو غير دينية" وبطبيعة الحال فإن شيخ الأزهر أسرع ليزف البشرى إلى الملك فؤاد فأبرق له "شاكراً له غيرته على الدين من عبث العابثين وإلحاد الملحدين وحفظ كرامة العلم والعلماء" [محمد رجب البيومى - الأزهر بين السياسة وحرية الفكر - (١٩٨٣) - ص ١١٥] . وتأمل الناس صيغة البرقية واكتشفوا إنها تكاد أن تقول أن الملك هو الذى أخذ القرار بسبب غيرته على الدين . ثم تتداعى الأحداث . أرسل شيخ الأزهر القرار إلى عبد العزيز فهمى وزير العدل لتوقيعه وإصداره بعد التصديق عليه . لكن عبد العزيز فهمى باشا وكان من أركان الأحرار الدستوريين رفض التوقيع ، ورفض إصدار القرار ، وكتب فى مذكراته قائلاً "استحضرت هذا الكتاب وقرأته مرة وأخرى فلم أجد فيه أدنى فكرة يؤخذ عليها مؤلفه ، بل على العكس وجدته يشيد بالإسلام ونبي الإسلام ، ويقدس النبي تقديساً تاماً . ويشير إلى أن النبوة هى

وحى من عند الله، والوحى لا خلافه فيه. وثقل على ذمتى أن أنفذ هذا الحكم الذى هو ذاته باطل لصدوره من هيئة غير مختصة بالقضاء، وفى جريمة الخطأ فى رأى من عالم مسلم يشيد بالإسلام، وكل ما فى الأمر أن من يتهمونه يتأولون فى أقواله، ويولدون منها تهماً ما أنزل الله بها من سلطان" [عبد العزيز فهمى باشا - حياتى - ص ١٥٤] وغضب الملك ووقع زلزال وزارى وانتهى الأمر بأن استقال عبد العزيز فهمى باشا واستقال معه تضامناً ومسانداً للشيخ على عبد الرازق ثلاثة وزراء آخرين هم محمد على علوبة وتوفيق دوس وإسماعيل صدقى. وهنا نتوقف مرة أخرى لنأمل الصورة المرتبكة فى إسماعيل صدقى الذى استقال من الوزارة دفاعاً عن حرية الرأى والمواقف الليبرالية لشيخ أزهرى هو ذاته الذى رأس الوزارة فى عام ١٩٣٠ وألغى الدستور وأصدر بدلاً عنه دستوراً مرفوضاً من الجماهير.. ومارس كل أشكال التعسف والقهر سواء فى وزارته الأولى (١٩٣٠) أو وزارته الثانية (١٩٤٦) واسمى وبجدارة الطاغية صدقى.

ولكن "كتاب الإسلام وأصول الحكم" وكتابه يأبى أن إلا الانتصار بأيدي ذات الذين أدانوه. فالزمان يدور وفى عام ١٩٤٧ أى بعد اثنان وعشرين عاماً، كان حزب الأحرار الدستوريين شريكاً قوياً فى الحكومة وكانت ثمة رغبة ملكية فى إرضاء هذا الحزب الذى يسانده بلا تردد، وفوجئ الجميع باجتماع هيئة كبار العلماء ومعها أعضاء المجلس الأعلى للأزهر فى ٢٥ فبراير ١٩٤٧ وأصدروا قراراً بإلغاء

القرار الصادر فى عام ١٩٢٥ وبإعادة شهادة العالمية للشيخ على وعودته الى زمرة العلماء من جديد . لكن المشايخ المجتمعين على عجل اكتشفوا صعوبة إنفاذ القرار ، فاللائحة تحتم أن يكون إلغاء القرار بأغلبية ثلثى موقعيه . والموقعين غالبيتهم توفوا ولم يبق سوى القليل . . فتقدم المجتمعون بالتماس إلى "جلالة الملك فاروق الأول المعظم" يقولون فيه "إن المجتمعين من أعضاء هيئة كبار العلماء وأعضاء المجلس الأعلى للأزهر وشيوخ الكليات الأزهرية يلتمسون من جلالة الملك وفضله على الأزهر غزير أن يتفضل فيضيف مكرمة إلى مكارمه الحميدة والعديدة فيعفوا عن الأثر المترتب على الحكم الذى أصدرته جماعة كبار العلماء من أكثر من عشرين عاماً" [للتفاصيل راجع - د . رفعت السعيد - الإرهاب إسلام أم تأسلم] واستجاب الملك لهذا الالتماس ثم ما لبث أن أصدر مرسوماً ملكياً فى ٢ مارس ١٩٤٧ بتعيين الشيخ على عبد الرازق وزيراً للأوقاف . ثم مرسوماً آخر بتعيينه أميراً لبعثة الحج المصرية .

والمشير للدهشة أن أحد الكتاب المنغمسين فى وعاء التأسلم قد روج ولم يزل أن الشيخ على عبد الرازق قد ندم على إصداره هذا الكتاب وأنه قرر عدم السماح بنشرة أخرى وقال أن هذا الندم قد أتاه فور صدور الكتاب واحتدام المعركة حوله وأنه تاب عن الخوض فى أبحاث من هذا القبيل . لكننا ومع مواصلة البحث نكتشف أن الشيخ قد واصل معركته وبشجاعة أكثر ووضوح أوضح ففى أغسطس ١٩٢٥ أدلى الشيخ بحديث رائع دافع فيه عن موقفه

وهاجم خصومه بشدة لجريدة انجليزية وتأكيداً منه على تحديه .. أعاد نشر الحديث مترجماً فى جريدة السياسة [السياسة - ٢٤ أغسطس ١٩٢٥].

ثم يفاجئنا الشيخ على فى عام ١٩٢٨ بتعليق مطول على كتاب "السفور والحجاب للأنسة نظيرة زين الدين" يقول فيه "ولأنى أحسب مصر قد اجتازت بحمد الله طور البحث النظرى فى مسألة السفور والحجاب الى طور العمل والتنفيذ . فلست أجد بين المصريين - إلا المخالفين منهم - من يتساءل عن السفور وهل هو من الدين أم لا ؟ ومن العقل أم لا ؟ بل تجدهم وحتى الرجعيين منهم يؤمنون أن السفور دين وعقل وضرورة لامناص منها حياة المدنية الحاضرة" ويوجه الشيخ تحية للمؤلفة "فهى شابه فتية تنهض بالدعوة إلى ما تعتبره صواباً، وإن خالفت فى ذلك رأى بعض الشيوخ الحاليين والمتقدمين، فى حين أن خوف البعض من إعلان آرائهم الحرة أن خالفت رأى الجموع يدمغهم بأنهم ليسوا بأنفع للبشرية من أهل البلد الذين لا يميزون بين خير وشر، وربما كان أولئك فى سكوتهم عما يعرفون، وفى إعراضهم عما انكشف لهم من الحق أخط درجة من الحمقى والمغفلين، فالذى ينقصنا هو الشجاعة فى الرأى وقول الحق من غير تردد ولا رياء فهنا مبدأ الكمال الانسانى، وهنا تختلف أقدار الرجال مصلح أو مفسد وشجاع أو جبان" [الهلال - أغسطس ١٩٢٨ - مقال الشيخ على عبد الرازق - ص ١١٨].

ولم تكن المعركة حول كتاب "الإسلام وأصول الحكم" سوى

بداية لمعركة استمرت طويلاً . . بين التيارين السلفى بزعامه الشيخ رشيد رضا الذى تخلى تماماً عن تعاليم أستاذه محمد عبده وجعل من الخلافة ورفض الفكر الليبرالى معركته الرئيسية ثم ساندته بعد قليل الأستاذ حسن البنا قبيل تأسيسه لجماعة الإخوان وبين قوى ليبرالية عديدة وتحول الأمر إلى صدام ضار على صفحات الصحف .

وتنشر الأهرام تصريحاً أدلى به مصطفى النحاس باشا عندما أصبح رئيساً لمجلس الوزراء لوكالة الأناضول التلغرافية قال فيه "إننى معجب وبلا تحفظ بكمال أتاتورك الذى صاغ بعقريته تركيا الحديثة . ولست أعجب فحسب بعقريته العسكرية ، بل أعجب أيضاً بعقريته الخالصة وتفهمه لمعنى الدولة الحديثة التى تستطيع وحدها فى الحالة العالمية الحاضرة أن تعيش وتنمو " ويرد عليه الأستاذ حسن البنا قائلاً "فدولتكم أكبر زعيم شرقى عرف الجميع فيه سلامة الدين وصدق اليقين ، وموقف الحكومة التركية من الإسلام وأحكامه وتعاليمه وشرائعه معروف فى العالم أجمع ، فالحكومة التركية قلبت نظام الخلافة إلى الجمهورية . ثم هل يفهم من ذلك أن دولة النحاس باشا وهو الزعيم المسلم الرشيد يوافق على أن يكون لأمته برنامج كالبرنامج الكمالى ، يتولى كل الأوضاع فيها ويفصلها عن الشرق والشرقيين ويسقط من يدها لواء الزعامة ؟ وإنا لنعيذ دولة الرئيس من هذا المقصد الذى نعتقد أنه أبعد الناس عنه " . . وكان هناك أيضاً طه حسين الذى فجر كتابه "فى الشعر الجاهلى" أزمة عارمة ثم خاض معارك ليبرالية أثارت كثيراً من الاهتمام وكثيراً من الهجوم . فقد دعا

السياسيين ورجال الدين إلى "رفع رايات العلم الحديث على أيدي قيادات من العلماء الذين يمكنهم أن يلائموا بين مستحدثات العلم على اختلافها وبين حاجات الناس وطاقاتهم واستعدادهم للتطور، وهم يمكنون للحكم الصالح المنتج الذى يحقق العدل ويكفل رقى الشعب ويتيح له أن يتقدم إلى الأمام بما يتطلب إشراف الدولة المدنية على التعليم، أى عزله عن رجال الدين ونفوذ الأجانب" وطالب "بالحرية الكاملة والمطلقة للتعليم الجامعى حفاظاً على حرية البحث العلمى والاكاديمى، وعلى الأزهرين أن يقوموا بتدريس الدين الصحيح كدين للحرية والتقدم، وأن يلحق الطالب الأزهرى المعنى الصحيح للوطنية الإقليمية وليس ما يقال أنه الرابطة القومية الدينية" ثم أشهر طه حسين سيف الشك الديكارتى فى كل المقولات مؤكداً "يجب حين نستقبل البحث عن الأدب العربى وتاريخه أن ننسى عواطفنا القومية وكل شخصياتها وأن ننسى عواطفنا الدينية وما يتصل بها. وأن ننسى ما يقال عن هذه العواطف القومية والدينية، وألا نقبل شيئاً مما قاله القدماء فى الأدب وتاريخه إلا بعد بحث وتثبت" [محمد كامل ظاهر - المرجع السابق] وكان طبيعياً أن تأتية ردود عديدة عنيفة ترفضه وترفض ديكارت بل وترفض ما أسمته التغريب باعتباره مؤامرة على الإسلام وعلى هوية الأمة. وكان هناك أيضاً إسماعيل مظهر الذى كتب كثيراً عن النمط العلمى فى التفكير فقال "إن اهتمام المفكرين العرب والمسلمين بالموضوعات المثالية المجردة بدلاً من الاهتمام بقضايا الحياة الواقعية، قد جعل النمط الغيبى لا الموضوعى

هو السائد فى تفكيرهم الماضى والحاضر، وإننى أتوقع وعسى أن يكون ذلك قريباً أن الخطوة التى خطوناها فى سبيل الخروج من ظلمات الأسلوب الغيبى إلى وضوح الأسلوب اليقينى سوف تقودنا سعياً إلى ميدان يتصادم فيه اليقينى مع الغيبى تصادماً يثير فى جو الفكر عجاجة ينكشف غبارها عن الأسلوب الغيبى وقد تحطمت جوانبه واندكت قوائمه، وتترك الأسلوب اليقينى قائماً بهامة الجبار، القوى الأصلاب، مشرفاً على الشرق، وقد هب من رقاد القرون الوسطى ليسير فى الدروب التى سهلت سبله للأنام نواميس النشوء والارتقاء" [المقتطف - المجلد ٦٨ (١٩٢٦) مقال لإسماعيل مظهر بعنوان النمط فى التفكير - ص ١٣٧] ويكتب إسماعيل مظهر فى مجلته العصور قائلاً "لقد جاهد الناس تحت تأثير فكر الحرية فى سبيل الفصل بين الدين والسياسة متخيلين أن الفصل بينهما فى الاعتبار كاف للفصل بينهما فى الواقع، ولقد هبت حول هذه المسألة عاصفة الجدل، وقامت قيامة الكلام. ولكن هل تخلص الدين من مؤثرات العقل المنحرف تحت وهم القيام بالواجب والمسئولية إزاء المعتقد الثابت ؟ لم يكن شيئاً من هذا، فإننا لا نزال نرى فى عصرنا الديمقراطى أن الدين تحت تأثير زعمائه قد عبر جسر الذاتية البشرية إلى موضوعات السياسة العملية، فاختلطت منافع الذوات بأوجه المنافع العلمية العامة اختلاطاً أفسد الديمقراطية وجعلها أبعد الأشياء عن الحرية الصحيحة" [العصور - العدد الأول - سبتمبر ١٩٢٧ - الافتتاحية - ص ٧].

وطبعاً تعرض إسماعيل مظهر ومجلته العصور إلى هجوم عنيف .. دفعه فيما بعد إلى تراجع عن كثير من هذه الآراء. ويمكن القول أن هذه المعارك قد امتدت بين الصفوة بسبب تعقيدات الكتابة التي ربما كانت متعمدة، لكن معارك أخرى اتخذت منحى أكثر بساطة ووضوحاً وكانت أشد قسوة.

وإذا كان الحوار حول كمال أتاتورك وموضوع الخلافة قد أتى مهذباً بين النحاس باشا وحسن البنا بسبب المكانة الرفيعة للنحاس باشا، فإن الحوارات الأخرى التي تناثرت حول هذا الموضوع لم تكن كذلك. خاصة ذلك الحوار أو بالدقة الشجار بين سلامة موسى والشيخ رشيد رضا. فسلامة موسى يكتب في "المجلة الجديدة" قائلاً "إن من يتأمل أحوالنا الآن في مصر والشرق العربى يجد فئتين تتغالبان الزعامة فى الرأى، أحدهما سلفية تقول بإتباع السلف الصالح وتنسب إليه أفضل الخصال وتلتزم بالتقاليد المأثورة، والأخرى فئة المجددين الذين يقولون بالتطور حين يعتدلون، أو بالثورة حين يغالون. ومن الغلو أن ينسب السلفيون حميد الخصال الى السلف دون الخلف لأن الإنسانية تتدرج فى الرقى، ولو كان السلف أصلح منا لوجب أن نبقى ملازمين لتلك الحضارة البدائية، ويجب أن تكون لنا تقاليد تشبه الوراثة فى صون كيان الأمة وتجديد يشبه التطور فى العمل للرقى" [المجلة الجديدة - العدد الثانى - ديسمبر ١٩٢٩ - مقال لسلامة موسى بعنوان: السلفيون والمجددون - ص ١٤٥] وفى عدد آخر فى المجلة الجديدة يكتب سلامة

موسى "إن الحضارة كتلة متماسكة فلا يمكننا أن نأخذ بعضها ونترك البعض الآخر، مثال ذلك أننا لا يمكننا أن ننشر الصناعة بيننا وننتقل من الطور الزراعى الى الطور الصناعى دون أن نعطى المرأة حريتها لأن هذه الحرية التى اكتسبتها المرأة فى أوربا هى ثمرة النظام الصناعى الذى يعيش فيه الأوروبيون" [المجلة الجديدة - العدد الثالث - يناير ١٩٣٠ - ص ٣٨٠] ورغم هذه الكلمات الرصينة والخالية من أى تهجم فإن الشيخ رشيد رضا قد تجاوز كل الحدود فى هجوم ساحق على صفحات المنار، إتهم فيه سلامة موسى بأنه يتخذ هذا الموقف لأنه مجرد نصرانى وكافر ملحد. وتشتعل المعركة فيرد سلامة موسى قائلاً "يعيش الشيخ رشيد رضا وهو يسب المجددين المصريين ويتهم بالكفر مخالفه، وهو يتمرغ الآن فى الضياع والعقارات التى جمعها بالنعرة الدينية، وقد يتساءل الإنسان هل هذه غيرة للدين أم غيرة للعيش" ويمضى سلامة موسى مهاجماً محبى الدين الخطيب الذى شارك هو أيضاً فى الهجوم عليه فيقول "أنه شاب ليس فيه خبث الشيخ رشيد وللشباب سذاجته، ولكنه يسير فى خطة عوجاء لا بد أنها ستنتهى به إلى أشر مما انتهى إليه الشيخ رشيد، وهو يصدر مجلتين يستخدمهما فى الطعن فى كل من طه حسين وعلى عبد الرازق وأمثالهما من شباب مصر الراقى، ويدأب أسبوعياً على ذلك حتى ليظن القارئ أنه ينوى بهما شراً عظيماً أو يريد منا أن نطردهما من وطنهما مصر" [المجلة الجديدة - العدد الرابع - فبراير ١٩٣٠ - ص ٤٢٢] ويرد رشيد رضا فى قسوة

ويستخدم ذات الألفاظ نصراني - كافر - ملحد ، فيأتي سلامة موسى بشتائم ربما كانت جديدة على قاموس الحوارات الصحفية وبالذات هذه الموضوعات فيقول : هذا الرجل رغم أنه موظف في الحكومة المصرية الآن ليس في دمه قطرة من الدم المصري [والمعلوم أن رشيد رضا شامى الاصل] ، وهو اخصائى فى السب والشتائم يميناً ويساراً بلا حساب ، وبسلطة يحسبها بلاغة ، فيقول عن العقاد أنه كاتب مراحضى وعن طه حسين أنه جاهل ، وله غارات على شخص المحرر لهذه الكتابة فهو فى نظرة كافر وشيوعى ونصرانى مدسوس على الإسلام وإباحى .. إلخ . أما عن الكفر فإنى أدلهم على إيمانى فهو إيمان الدكتور هيكل ومحمود عزمى وعزيز ميرهم ، بل أنه أيمان معظم الشباب المصريين الذين درسوا شيئاً من العلوم العصرية ، ولا يمكن أن يسمى أى منهم كافراً ، إذ أن لكل منهم صوفيته الدينية أو الفلسفية أو الأدبية ، وأما أنى نصرانى مدسوس على الإسلام فالرد عليه سهل وهو أن الإسلام دين بلادى ، وواجبى أن أدافع عنه أمام الاجنبى وهذا ما فعلته فى كل الظروف .

ففى عام ١٩٢٠ كتب السير هاردى جونسون مقالاً فى مجلة نيو ستيتسمان يهاجم فيه الإسلام ويطالب بإلغاء الأزهر فرددت عليه رداً مفحماً قلت فيه : مع أنى قبضى أعيش بين مسلمين لا أجد أن الإسلام يؤذى غيره ، بل هو يعمل للتسامح والرخاء . وفى العام الماضى اقترحت الاحتفال بمرور ألف عام على تأسيس الأزهر ، وأهمس إليه والى أمثاله بأن الجمهور فى مصر قد ارتقى ، وأن الطن

فى آذانه بأن هذا أو ذاك من الكتاب كافر أو عدو للإسلام أو إباحى
 إنما يعده الجمهور هذراً سخيلاً" [المجلة الجديدة - العدد الرابع] لكن
 الشيخ رشيد رضا لا يسكت ويصدر كتاباً ضد سلامة موسى مليئاً
 بالشتائم والاتهامات . وصدر الكتاب بلا اسم للمؤلف ويعلن
 سلامة موسى قائلاً " وسألت عن كاتبة فى إدارة المطبوعات فعرفت
 انه ابن أخ رشيد رضا الصحفى المعروف الذى وفد على بلادنا كما
 تفد الطواغين وخص نفسه بشتيم الشبان المصريين واتهامهم بالإلحاد
 والشيوعية وهكذا بحيث تحتاج إلى إن تغسل عقب قراءة هذا
 الكتاب" [المجلة الجديدة - عدد يوليو ١٩٣٠] . والآن آن لنا أن
 نتوقف أمام ملاحظتين هامتين الأولى عن علاقة حسن البنا وجماعة
 الإخوان برشيد رضا قائد حملة التكفير والاستخدام الطائش
 للتأسلم السياسى وهنا نتوقف أمام مقولة شهيرة لحسن البنا يحدد
 فيها ملامح جماعة الإخوان عند نشأتها إذ يقول "نحن سلفيون من
 أتباع الشيخ رشيد رضا" .. ولأن الجماعة كلها تعتبر نفسها من
 أتباع الرجل الأكثر تطرفاً فى تكفير الليبراليين وكل الخصوم ، فإن
 حسن البنا يؤكد فى "مذكرات الدعوة والداعية" أن مجلة المنار وهى
 لسان حال رشيد رضا التى استخدمها فى ترويج فكرة "قد قدمت
 أجل الخدمات للإسلام فى مصر وغيرها من البلدان" [حسن البنا -
 مذكرات الدعوة والداعية] بل أن أحد المتخصصين فى تاريخ
 الجماعة أكد "أن البنا كان يتباهى بأن الشيخ رشيد رضا كان على
 وشك الانضمام للجماعة قبيل وفاته"

أما الملاحظة الثانية وهي بالغة الأهمية فهي أن هذه الهجمات التكفيرية ضد رموز الفكر الليبرالي والتقدمي قد دفعت الكثيرين للتراجع عديداً من الخطوات إلى الوراء.

والحقيقة أن الخلاف اأخدم والشرس بين التأسلم وبين القوى الليبرالية والذي استخدمت فيه أسلحة التكفير ينبع من خلاف جوهري فى مبدأ النظر للدين الاسلامى "فالبعض الذى يعتقد أن الإسلام عقيدة سماوية وهو فى ذات الوقت محتوى سياسى يقيم مجتمعا إسلامياً يشكل بذاته كومنولث اسلامى أى وحدة من الشعوب المسلمة ، هذا البعض يرى أن ذلك يؤدى بالضرورة الى أن تكون الأمة الإسلامية تكوين سياسى موحد ومتكامل ومن ثم تمسكوا بفكرة الخلافة وباعتبار الخالفين مخالفين للإسلام ذاته".

Von Grunebaum - Modern islam , The search for]

وكان هذا التيار يؤكد فى تشدد "إنه لا خلاص للعرب والمسلمين ، ولا فرصة أمام الشرق كى يحترم نفسه ما لم يتخلص من كل معطيات الحضارة الغربية"

The society of Muslim Brothers-.Mitchell.R]

وعبر هذه النظرة المتأسلمة أصبح الصراع شديد الحدة وأصبح التكفير حتمياً، وفي مواجهة هذه الحملة العنيفة بدأ عديد من الليبراليين فى التراجع خاصة ذوى النزعة الارستقراطية التى لا يمكن أن تحتل صراعاً كهذا، كذلك شعر ليبراليوا حزب الأحرار الدستوريين [أحمد لطفى السيد و د. محمد حسين هيكل .. وغيرهما] أن معركة كهذه تؤذى صورة الحزب السياسى فى مواجهة النفوذ الطاغى لحزب الوفد، وكان هناك أيضاً عدد من المثقفين الذين لم يحتملوا ثقل هذا التحدى فتراجعوا هم أيضاً بحثاً عن موقف وسط، وربما أصدر محمد حسن الزيات مجلته "الرسالة" للتبشير بهذا الموقف الوسط مؤكداً فى العدد الأول منها أنها ستكون "جامعة بين روح الشرق وحضارة الغرب". وكتب أحمد أمين فى عددها الأول أيضاً معبراً عن الحاجة الى نموذج اجتماعى تربوى متوازن ومتكامل يقدمه رجال الثقافة ليتجاوز الثنائية بين التغريب والسلفية ويجمع بين الثقافة العربية الإسلامية وبين الثقافة الأوروبية ويقول "فى مصر حلقة مفقودة لا نكاد نشعر بوجودها فى البيئات العلمية مع إنها ركن من أقوى الأركان التى ينبغى أن نبني نهضتنا عليها، تلك الحلقة هى أن طائفة من العلماء جمعوا بين الثقافة الدينية الإسلامية العميقة وبين الثقافة الأوروبية العلمية، هؤلاء يعوزنا الكثير منهم ولا يتسنى لنا أن نهض إلا بهم. فإن أكثر من عندنا قوم تثقفوا ثقافة عربية إسلامية بحتة، وهم جاهلون كل الجهل بما يجرى فى العصر الحديث من آراء ونظريات فى العلم والأدب

والفلسفة ، وطائفة أخرى تثقفت ثقافة أجنبية بحتة ، ويعرفون آخر ما وصلت إليه نظريات العلم فى الطبيعة والكيمياء والرياضيات لكنهم يجهلون الثقافة العربية الإسلامية كل الجهل ، والفئة الأولى يمثلها خريجوا الأزهر ودار العلوم ومدرسة القضاء الشرعى ، ويمثل الطائفة الثانية نوابغ المدارس العصرية والثقافات الأوروبية" [الرسالة - يناير ١٩٣٣] . وقد سبق ذلك أن أصدر الدكتور هيكل ملحقاََ مجلة " السياسة " مكتسباً تماماً بطابع اسلامى مطالباً "بحضارة يمتزج فيها العلم بالإيمان فيرتوى منها العقل والنفس جميعاً ، وتجد فيها الروح الإنسانية غذاءً يجمع لها بين الرخاء والسعادة ، وبين النعمة والطمأنينية" [ملحق مجلة السياسة - ١٩٣٢] . ويواصل د . هيكل توضيح موقفه أو بالدقة تبرير موقفه فى كتابه " منزل الوحي " فيقول "لقد خيل إلىَّ زمنا كما لا يزال يخيل إلى أصحابي أن ننقل من حياة الغرب العقلية كل ما نستطيع نقله ، لكننى أصبحت أخالفهم الرأى فى أمر الحياة الروحية ، وأرى أن ما فى الغرب منها غير صالح لأن ننقله فتاريخنا الروحي غير تاريخ الغرب ، وثقافتنا الروحية غير ثقافته . ولا مفر إذن من أن نلتمس فى تاريخنا وفى ثقافتنا وفى أعماق قلوبنا وفى أطوار ماضينا هذه الحياة الروحية ، ولقد حاولت أن أنقل لأبناء لغتى ثقافة الغرب المعنوية وحياته الروحية لكننى أدركت بعد لآى أننى أضع البذر فى غير منبته ، فإذا الأرض تهضمه ثم لا تتمخض عنه ولا تبعث الحياة فيه ، ثم رأيت أن تاريخنا الاسلامى هو وحدة البذر الذى ينبت ويشمر" [د . محمد حسين

هيكـل - منزل الوحى- (١٩٣٦) ص٢٦ من المقدمة]. ويعلق د. جابر الانصارى على هذه الكتابة قائلاً "أن هيكل بهذه التوفيقية الفكرية يعبر عن تيار محمد عبده محاولاً بعثة بعد أن تصدع بسبب الصراع بين التيار النصوصى المحافظ للشيوخ رشيد رضا، وبين التيار العقلانى المجرد لطف حسين وعلى عبد الرازق قبل أن يتغيرا"[د. محمد جابر الانصارى - تحولات الفكر والسياسة فى الشرق العربى - ص٦٧] ثم يورد الانصارى اقتباساً من برنارد لويس يقول "انقلبت بهذا الموقف الصورة تماماً، فإذا الإسلام باعتباره قوة عقيدته اجتماعية سياسية جامعة يقوم، وإذا الليبرالية العلمانية تخسر، وحتى الليبرالية المخفية والمطعمة بعناصر تراثية أخذت تزيد من تقبلها للأفكار الإسلامية، وأصبح واضحاً أن رغبة العرب فى دفع السيطرة الأوروبية عنهم أقوى بكثير من رغبتهم فى استيعاب الحضارة الأوروبية".

وقد تمدد هذا الموقف البرجماتى والمتراجع ليشمل العقاد الذى تفرغ لكتابة العبقريات وطه حسين وعلى ومصطفى عبد الرازق وإسماعيل مظهر وآخرين من الصفوة المثقفة. ويفسر "بادو" ذلك قائلاً "فى معظم أقطار الشرق الأوسط كان الاتجاه نحو العلمانية والإصلاح الاجتماعى سائداً، وكان التوجه الدينى كثيراً ما يقرب بالمحافظين والمتحجرين الذين يرفضون التقدم والسير مع الركب، واليوم نجد أن الدين قد عاد إلى مسرح الأحداث.. لكن نمو الظاهرة الدينية ليس إحياء عقيدياً فكرياً وإنما هو إحياء سياسى اجتماعى،

ليس فيه اجتهاد دينى وفكرى جديد وإنما هو محاولة تستخدم الدين لأهداف سياسية أى إحياء الدين كحزب سياسى " [ج- بادو وآخرين - التطور فى الدين - مجموعة دراسات إسلامية لعدد من المستشرقين الأمريكين - ترجمة نقولا زيادة وآخرين - ص ٢٤٦] .

أما عباس العقاد فيبرر تراجع شخصياً قائلاً " بضرورة اللياذ بالعقيدة لأنها هى التى تعيد ذكرى القديم وتحمى أصحابها من غارات الأعداء وأيضاً من حركة المبشرين وكذلك الفزع من الشيوعية " بروز اليوسف - ١٢ أغسطس ١٩٣٥] .. تراجع الكثيرون من الصفوة .. ولكن بقى النضال ضد التأسلم ومن أجل الليبرالية مستمراً .

obeikandi.com

ليبرالية يسارية

وتراجع اليمين بعيداً عن معركة الليبرالية والحريات وتجديد الفكر الدينى تحت مطارق التكفير وسعياً نحو إرضاء القصر الملكى، وتطلعاً إلى المشاركة فى حكم البلاد على حساب حزب الوفد وفى مواجهته. وهنا بدأ دور اليسار الذى كان يركز على القضايا الاجتماعية ولا يتلمس مسألة الليبرالية والتجديد فى الدين إلا لمأماً. بل كان لا يكف هو أيضاً، على الهجوم على حزب الوفد ربما بسبب الشار القديم المتمثل فى قرار سعد زغلول بحل الحزب الشيوعى واتحاد العمال ومحاكمة قاداته. والمعارك اليسارية مع الوفد طويلة، لكننى أختار منها نموذجاً فريداً لشاعر فريد هو أيضاً ويسارى شجاع هو محمود رمزى نظيم الذى كانت قامته فى ذلك الحين قريبة من قامته بيرم التونسي ومع ذلك طواه النسيان الذى فرضته عليه القوى

الرجعية بكافة أطرافها . ولدينا قصيدة عنوانها " بين برلمانين " كتبها
نظيم بعد حل البرلمان الوفدى وبدء انتخابات جديدة . ونقرأ

دو شتونى ولا شئ جديد

فلا غلب ولا حال سعيد

جموستى شركة العمدة وجحشى

بتاع الشيخ والغفرا شهود

وزعبوطى المقطع من زمان

هو الزعبوط والزفت العتيد

ثم هو يوجه كلامه لنواب الوفد الذين حل برلمانهم قائلاً :

أدى حالتى مطينة تبكى

فإيه اللى عملتوه يفيد

خششتوا البرلمان فكان حرباً

على كام قرش يأخذها العبيد

خنقتونا وزدتوها هباباً

على الفلاح هل هذا حميد ؟

ودى أنتم قد وقعتم تحت ايدنا

وللايام تصريف مجيد

وأنتم يا جداد إذا انتخبتم

فماذا تعملوا ماذا تريدوا ؟

شفونا يا خلائق أحنا منكم

ومن مصر ومحناشى هنود .

[الحساب - ٣٠٦ - ١٩٢٥]. وتمضى الحساب فى معركتها
الطبقية فى ظل مناخ تفرغ فيه الكثيرون للصراع الفكرى حول
الخلافة وكتاب "فى الشعر الجاهلى" وكتاب "الاسلام وأصول الحكم"
وتجديد الفكر الدينى ويعاود محمود رمزى هجومه الطبقي الحاد إذ
يطالب العمال والفلاحين بالهجرة بعيداً عن الظلم الطبقي الذى
يمارس ضدهم ويقول :

وسيؤوا مصر للملاك تسكنها
يجندوا جيشها من خير شجعان
وسيؤوا النيل للأسياذ تحرسه
وقت العلو وقد أضحى كطوفان
ودوروا لنا على العمال إخوتنا
م إسكندرية لدمياط لأسوان
وسيؤوا الشغل للملاك عمله
ليصبحوا بين نجار وسانان
وساعدوهم على لم العزال وأنا
سابق حميركم وحاطط ديلي فى سنانى
ثم يمضى فى قصيدة طويلة قائلاً :
يكفى بقى غلبنا يكفى فضيحتنا
واللى جرى ينكتب فى كل جرنان
قال يتركونا وعن صحة سلامتنا
لا يسألوا فى انتخاب جاى من تانى

والأغنيا بس مندوبون ينتخبوا
للبرلمان فهم أرباب سلطان
والحاملين شهادات مقلوطة
كالأغنياء فهم أصحاب عرفان
وسبعة وتسعين فى الميه مكّمه
عن الكلام وإن كانوا كسحبان
أما الثلاثة فى المية فإنهموا
أهل الرياسة فى أنس وفى جان
فإن يقولوا فمصر كلها نطقت
ومن بمصر سواهم غير جدعان

[الحساب - ١٨ - ٥ - ١٩٢٥]

ولكى أتباعد بالقارئ عن الدهشة من إيراد كل هذا القدر من
الشعر، فإننى أعترف بتعمدى ذلك. لكى تأتى إمكانية المقارنة بين
التعبير الفنى فى المحتوى الطبقي لليسار وبين ما كان بعد ذلك منذ
بداية ثلاثينيات القرن الماضى من كتابات ورسوم تشكيلية وإشعار
كتبت أصلاً بالفرنسية ثم ترجمت بعربية غير مفهومة، ومقالات
سيرىالية النسيج ورسوم من نوع لوحه اسمها صاحبها "التعبير عن
مشاعر كرسى عندما تجلس عليه" وشعارات جميلة لكنها لا تقترب
من ذهن المواطن العادى مثل "الفن معمل بارود" أو "من حق الإنسان
أن يعيش حراً ٢٤ ساعة فى اليوم". وقصص كتلك التى كتبها البير
قصيرى فلما لم يجد من يفهمها فى مصر غادر الى باريس وأبدع

هناك بالفرنسية . انه محتوى راق وليبرالى بل وأكثر من ليبرالى ولكنه بعيد عن مذاق الفلاح والعامل .. والحقيقة أن هذه الليبرالية قد تداخلت مع مساحة ما من النضال السياسى الذى جذب عديداً من مثقفى البرجوازية الصغيرة المصريين فتولد من ذلك صراع سياسى أفضى الى التحرر من هذه الأفكار المغموسة فى السيريالية وأيضاً التحرر من أصحابها . ولكن كيف كانت بداية هذا التيار الليبرالى الممعن فى التأجنب أى الاتجاه بشكل كامل نحو أفكار ورسوم وأشعار وشعارات أجنبية ؟

فى نهايات العشرينيات كانت الفاشية تتسلل إلى مصر ووجدت لنفسها مساحة واسعة وسط جالية إيطالية شديدة النشاط كثيرة العدد (قاربة ٧٠ ألف شخص) وتمتلك ٥٧ مدرسة تضم ١٠٦٨٨ طالباً فى عام ١٩٣٣ - ١٩٣٤ . [عبد الحميد فهمى مطر - التعليم والمتعطلون فى مصر - ص ١٩١] وفى أوساط هذه الجالية نشطت سفارة ايطاليا وشكلت فرقاً فاشية كانت تتهاذى فى شوارع المدن المصرية بقمصانها السوداء، بما أثار مخاوف اليساريين الايطاليين . ثم أتت النازية الهتلرية واضطهادها لليهود بما أثار الفزع وسط اليهود فبدأوا هم أيضاً فى التحرك وربما كان الأكثر نشاطاً من اليهود ليون كاسترو [كان صديقاً لسعد زغلول وأصدر مجلة بالفرنسية ذات ميول وفدية أسماها Liberte] للمزيد حول دور ليون كاسترو وتحولة لخدمة الحركة الصهيونية راجع : أحمد محمد غنيم وأحمد أبو كف - اليهود والحركة الصهيونية فى مصر -

كتاب الهلال . وأيضاً د . رفعت السعيد - اليسار المصرى ١٩٢٥ -
١٩٤٠] . وكان هناك مثقفون يهود ومصريون ارستقراطيون تعلموا
فى المدارس الفرنسية وخاصة الليسية ١٥٧ مدرسة تضم ١٨٦٥
مدرساً و ٣٢٤٩٥ طالباً] وكان عديد من المدرسين الفرنسيين
يساريين أو قريبين من اليسار . ولعل ما أفزع هؤلاء جميعاً هو الصدى
الذى وجدته الفاشية والنازية فى المناخ المصرى . ففى الصحافة كان
هناك مديح كثير لهذا التيار يقال أنه كان مدفوع الأجر من سفارتى
ألمانيا وإيطاليا فتقول إحدى هذه الصحف " لقد أتى موسوليني
بأعمال مجيدة وجعل الشعب الايطالى يقلع عن كثير من العادات
القديمة التى كادت أن تؤدى بإيطاليا إلى الخراب " . [اللطائف
المصورة - ٢٨ - ٢ - ١٩٢٧] ونقرأ مديحا لموسوليني لأنه " أسكت
المعارضة فى البرلمان الايطالى وصان بذلك حياة المملكة التى كانت
جرائدها ولسان معارضتها تقودها بخطوات سريعة نحو البلشفية "
[قسطاكي إلياس عطاره - تاريخ تكوين الصحف المصرية -
(١٩٢٨) - ص ١٩٧] وحتى الأهرام تكتب " ولقد يكون مفيداً
لمصر وهى تتسلح للدفاع عن كيائها إزاء الدسائس الشيوعية إلقاء
نظرة على الحرب العوان التى أعلنها الفاشست فى ايطاليا على
العدو المشترك " [الأهرام ٨ - ٩ - ١٩٢٧] وحتى " السياسة " جريدة
حزب الأحرار الدستوريين والتى كانت وحتى وقت قريب ليبرالية
خالصة كتبت تقول : " لعلنا لا نخطئ إذا قلنا أن الروح الفاشستية
تلقى تأييداً أشد حرارة من الروح البرلمانية " [السياسة - ٣١ - ٨ -

[١٩٣٦] ثم كانت هناك القوى المنظمة التى جعلت من نفسها سنداً للفاشية ومنها أحمد حسين [حزب مصر الفتاة] الذى كان يصرخ بأعلى صوت " نكره هذا النظام البرلمانى الذى يقوم على تعطيل الأعمال وتعويق الإنتاج والذى يحول البلاد إلى مسارح للخطابة ونحن نريد فى نهاية الأمر نظام لا تكون فيه الكلمة للجهال وهم فى كل مكان الأكثرية " [الصرخة - ٧ - ١٠ - ١٩٣٣] ثم لا يلبث أن يقول " الفاشية فيها كثير من الإسلام " [الصرخة ١ - ٣ - ١٩٣٥] ووجدها القصر الملكى والذى كان يسيطر عليه ثالث من الشيخ المراغى - على ماهر - كامل البندارى الفرصة ليستخدام هذه القوى السياسية ذات النزعة والعلاقات الفاشية فى صراعه ضد الوفد، وتكتب جريدة المصرى الوفدية وهى تتحدث عن الفاشست المصريين " فالديكتاتورية إذا كانت شراً فى صورتها الشعبية كما هى فى ايطاليا وألمانيا فإن شرها يتجاوز الحدود والقيود إذا تولاها رجال السراى، وقد صدق زعيم الأمة إذ قال " ليس أسوأ من حكم رجال السراى فى أى بلد من البلاد " [المصرى - ٣ - ٧ - ١٩٣٨] .. ويتحدث النحاس عن ذلك كله معلناً فى البرلمان عندما كان رئيساً للوزراء " أن جمعية مصر الفتاة تعمل لحساب دولة أجنبية ضد مصلحة البلاد " [مجلس النواب - الهيئة النيابية السادسة - مضبطة جلسة ٢٢ - ٧ - ١٩٣٦ - ص ٩٧] وألحت الصحف الوفدية إلى إن هذه الدولة هيأطاليا وقالت آخر ساعة " لقد أنفقت أيطاليا فى عام ١٩٣٥ مبلغ ٢٠ ألف جنيه على الدعاية وتضاعف هذا المبلغ فى

عام ١٩٣٦ " [آخر ساعة - ١٩ - ٧ - ١٩٣٦] وتكتب مجلة The communist international إن القاهرة هي أحد المراكز الرئيسية للدعاية الفاشستية وللتجسس لحساب إيطاليا وألمانيا ، والدعاة الفاشست يرددون للجماهير المسلمة أكاذيب تقول أن الكثيرين من الألمان والايطاليين قد اعتنقوا رسالة محمد وهم يوزعون كتاب "كفاحي" لهتلر كأنه قرآناً جديداً.

[6 (1939) P 476 . xvll No. Vol]

ولعل هذه المجلة كانت تتابع كغيرها ما كتبه الأستاذ البنا في مجلته النذير إذ قال " ذكرت بعض الصحف أن ألمانيا وإيطاليا تفكران في اعتناق الإسلام. وقررت إيطاليا تدريس اللغة العربية في مدارسها الثانوية بصفة رسمية وإجبارية ، ومن قبل سمعنا عن تفكير اليابان في إشهار الإسلام ". [النذير - ٤ ذى القعدة ١٣٥٧ - العدد ٣٠ - مقال للأستاذ حسن البنا] وسارعت شعب جماعة الإخوان إلى الترويج لقصة تقول أن هتلر قد أسلم وقام بالحج سراً وأسمى نفسه الحاج محمد هتلر . وتتحول الشائعات إلى تقارير رسمية ونقرأ " ففى لقاء بين السير والترسمارت المستشار الشرقى السفارة البريطانية مع وكيل وزارة الداخلية . قال وزير الداخلية أن حسن البنا يتلقى أموالاً من ألمانيا وإيطاليا والقصر [محسن محمد - من قتل حسن البنا - ص ٨٨] ثم نكتشف نحن وثيقة مترجمة بالانجليزية عن أصل بالألمانية ضبطت لدى مدير مكتب الدعاية الألماني Herr wilhelm Stellbogen وهى عبارة عن مذكرة مكتوبة بالاختزال تقول "لقد

أرسلت البعثة إلى حسن البنا مرة أخرى ذات المبلغ بذات الطريقة لكنهم طلبوا مزيداً من المال رغم أننى سلمتهم ألفى جنيه [المتحف البريطاني - وثائق الخارجية البريطانية - ١٩٣٩ - 0.F - 371 No. 1939-1-22 - 23342 وثيقة أخرى تقول "إن دفعة جديدة من الأموال لجماعة الإخوان المسلمين قد أصبحت فى اعتقادى ضرورية جداً" [مكتب الأمن العسكرى - مصر [No.F - 0371. 23342]. وفى ظل مناخ كهذا.. يكون من المنطقي أن يتجمع الليبراليون من كل صنف بحثاً عن حماية لأشخاصهم إن كانوا يهوداً أو سعيًا للدفاع عن أفكارهم المناهضة للفاشية.

وتبدأ موجه من التجمعات التى بدأت أجنبية صرفه ثم تداخل فيها عدد من المثقفين المصريين ذوى الثقافة الفرنسية بالاساس. وكوّن ليون كاسترو فى نهاية العشرينيات جماعة أسماها Essayistes [المحاولين] كجماعة ثقافية علمية ضمت عدداً من الايطاليين واليونانيين وقليل من الشوام وقليل جداً من المصريين وأصدرت مجلة أسمتها L'effort [المجهود] وتجمع داخل هذه الجماعة تيار يسارى تزعمه زكى ليفى الذى أصدر مجلة بالفرنسية أيضاً أسماها La gerbe [الحزمة] [محضر نقاش مع إدوارد ليفى فى باريس نوفمبر ١٩٦٨] ومع تصاعد المد الفاشى فى أوروبا واستشعار اليهود والقوى الليبرالية بالخطر تكونت فى مدارس اليسيسية حيث أبناء الاستقراطية المصرية موجات من العداء للفاشية. وفى عام ١٩٣٤ تجمع عدد من الاجانب من جنسيات مختلفة برئاسة بول جاكودى كومب وأسسوا "اتحاد أنصار السلام" [محضر

نقاش مع دينا فورتى - أجرى فى روما ٢٤-٢-١٩٧٢] وقد أنضم الى هذه الجمعية عديد من الشعراء والفنانين الاجانب ومنهم الشاعر اليونانى الشهير فيوبيريديس [محضر نقاش مع بول جاكودى كومب- أجرى فى باريس فى نوفمبر ١٩٦٨] وفى الجالية اليونانية [كان عددها قريباً من ٤٠٠ ألف فى بلد مجموعة سكانه ١٦ مليون وكان لدى هذه الجالية ٦١ مدرسة تضم ١٢٠٠٢ طالباً] نهضت حركة ثقافية ليبرالية تضم شعراء ورسامين مشهورين منهم أنزلوا بولو وحاجى أندريوس وهو كاتب روائى مشهور كان يكتب رواياته بإسم غير أسمه هو تسيركوس. وفى إطار هذا النشاط بدأت موجه ليبرالية مصرية بالأساس ومتمركزة فى ميدان الفن والأدب بالأساس أيضاً. وفى بيت الفن [5 شارع الحبالة بالحلمية الجديدة] تجمعت نواه من الفنانين التشكيليين والمثقفين والشعراء بزعامة الفتى الارستقراطى جورج حنين والذى تحدى الأسرة وتزوج من مسلمة هى إقبال [بولا] العلايلى حفيدة الشاعر أحمد شوقى، وكان جورج حنين يعلن شعار "الفن معمل بارود" ويعتمد السيرىالية مذهباً ليس فقط فى الرسم وإنما حتى فى الكتابة والشعر وذلك بهدف إثارة "الاستغراب" فى نفوس الجماهير، مؤكداً "إن كل راحه ونعمة فى الحياة الجديدة ولدت فى أذهان رجال شذوا عن العرف والمألوف" [مجلة التطور - يناير ١٩٤٠ - مقال لكامل التلمسانى بعنوان نحو فن حر] ويمكن القول أن جماعة الفن والحرية هى امتداد متمصر لجماعة المحاولين. وفى ندوة لجماعة المحاولين عقدت فى ٦ أبريل ١٩٣٩ ألقىجورج بحثاً قال فيه "إن هدفنا ليس تغيير

الرغبة بل تغيير المجتمع وتكييفه مع رغباتنا . ولا يمكن للفن أن يكون عاطفياً فحسب ، فهو ضد النظام القائم وضد الطبقة الحاكمة وضد الخداع وضد الركوع البوذي فالفن ليس سوى مخزن ذخيرة" [نشرة بالفرنسية مطبوعة بالرونيو 2-May1939. ART et Libarte-No] . .

وفى معرض لفؤاد كامل شقيق أنور كامل كانت لوحة باسم رسم لمشاعر كرسى عندما تجلس عليه . وبطبيعة الحال إنتقد البعض حنين وجماعته لأن كتاباتهم وأشعارهم باللغة الفرنسية وحتى لو كتبت بالعربية جاءت غامضة وغير مفهومه وبعيدة عن مشكلات الجماهير ورد هو على ذلك قائلاً "لقد حذرنا قائلين هذه الجماعة لماذا تتمسكون بسجنها داخل الإطار المحدود؟ ألستم بذلك تتباعدون عن صفوف هؤلاء الذين لا يحملون تجاه الفن سوى الفضول وليس الاهتمام؟ ونحن نجيب على هؤلاء أن الفن يعتبر فى نظرنا ليس مجرد صور أو أشكال منحوتة أنه شئ آخر تماماً فهو فوق كل ترجمة ممكنة للحياة، وفوق كل تعبير مؤقت أو أبدى عن الشاعر" [نشرة بالفرنسية مطبوعة بالرونيو - 1 - Mars 1939. ART et Libarte - No] ووسط هذا المناخ شعر البعض الأقل ثراء والأكثر شعبية وحماساً بالغيرة، وأحياناً بعدم الجدوى ويصف لطف الله سليمان وضعه بينهم قائلاً "كانت أجواء شديدة الجمال والجمالية وكان أغلبهم ينتسب إلى البرجوازية الكبيرة، وفى هذا الجو المخملى كنت أشعر أننى كزنجى بين ارستقراطيين من البيض" [البلاد - لندن - حوار بعنوان لطف الله سليمان يتذكر - معارض دائم على طريقته] . وتمايز المصريون وأسسوا "جمعية الخبز

والحرية" التى ضمت أنور كامل - أسعد حليم - فتحى الرملى - صالح
عرابى - د. عبد العزيز هيكى [محضر نقاش مع أسعد حليم فى ٢٠-
١-١٩٦٩] وتكاثرت الجماعات الليبرالية ذات النكهة المصرية ومنها:
نحن أنفسنا - جماعة البحوث - جماعة الشباب للثقافية الشعبية -
الاتحاد الديمقراطى - المركز الثقافى الاجتماعى - لجنة نشر الثقافة
الحديثة - جماعة أصدقاء الثقافة - دار الأبحاث العلمية .. وعديد من
الجمعيات الأخرى التى كانت تعقد ندوات وتصدر نشرات وبيانات
بحيث كانت القاهرة تموج بحركة ثقافية ليبرالية لم تشهدها من قبل .
ومع هذه الجمعيات نشطت حركة النشر .. روايات دواوين شعر
ومجلات منها التطور والفجر الجديد والجماهير وأم درمان وغيرها
ويمكن أن نتفهم طبيعة بعض هذه الصيحات من إلقاء نظرة متعجلة على
بعض أعداد التطور .. ونقرأ عناوين مثل "نحن نؤمن بالتطور الدائم -
نحن نقاوم الأساطير والخرافات ونكافح القيم المتوارثة - الدولة التى لا
عدالة فيها خير لها ألا تكون - الفن معمل بارود - على الدولة أن
تكفل للمواطن حقها فى الشعر والموسيقى والجنس والخبز [التطور أعداد
- يناير - فبراير - إبريل ١٩٤٠].

وهكذا تهيأت التربة المصرية لجيل جديد من الليبراليين لكنه وبدلاً
من أن يكون كجيل العشرينيات ذا نكهة يمينية أصبح هذه المرة فى
الأربعينيات ذا نكهة يسارية وبذلك أصبحت المعركة ضد قوى
التأسلم أكثر صعوبة وأكثر تعقيداً .

تأسلم على الطريقة الاخوانية

ونأتى الى جماعة الاخوان المسلمين التى أتت إلى الساحة فى عام ١٩٢٨ . وقد اختلف الإخوان أنفسهم فى تاريخ نشأتها فقد أكدوا أنه شهر ذى القعدة عام ١٣٤٧ هـ [ونلاحظ أن حسن البنا أورد التاريخ الميلادى المرادف له على أنه مارس ١٩٢٨ . ولكن روزنتال وفى مقال له بعنوان "الاخوان المسلمين فى مصر" المنشور فى مجلة عالم الإسلام أكتوبر ١٩٤٧ - أكتشف من مقارنة التقويمين أن ذى القعدة ١٣٤٧ هـ يوافق ابريل ١٩٢٩] (*) وكان تأسيس الجماعة بداية لربط السياسة بالدين فى العصر الحديث ، أو بالدقة اتخاذ الدين ستاراً لفعل وتنظيم هو سياسى فى الجوهر . وقد أدى ذلك إلى محاولات جاءت بائسة فى بعض الأحيان لايجاد تبرير فقهى لما لا يمكن تبريره وفق التعاليم الصحيحة للإسلام . وبدأ ما يمكن تسميته " بالتفقيه " [أى إدعاء معرفة

الفقه [وهو ما رفضه عمر بن الخطاب عندما سئل " فى القرآن الكريم نجد " وفاكهة وأباً" فما هو الأب فقال لا أعرف ثم أضاف نهينا عن التفيقه " .. ونسيان الحديث الشريف " أوغلو فى هذا الدين برفق " . والآية الكريمة " قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً ، الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهو يحسبون أنهم يحسنون صنعا " . وإذا كانت أسلمة السياسة قد بدأت من الخلاف حول الخلافة ثم استخدام الدين كغطاء لتكفير الخصوم ومن ثم إباحة قتلهم رغم أنهم يعلنون ويجهرون بأنهم مسلمون . وينسون ما رواه البخارى ومسلم وأبو داود من أن المقداد بن الأسود رضى الله عنه قال " أتيت رسول الله وقلت أرأيت إذ لقيت رجلاً من الكفار فإقتلنا فضرب إحدى يدي بالسيف فقطعها ثم لاذ منى بشجرة وقال " أسلمت لله " أقتله فقال رسول الله : لا تقتله . فقلت : أنه قطع إحدى يدي ثم قال ذلك ؟ فقال النبى : لا تقتله فإن قتلته كنت بمنزلته قبل أن يقولها " . وقد أستند حسن البناء فى معاركه التى سبقت تأسيس الجماعة إلى عدة معطيات اعتبرها تبعد الإنسان المسلم عن إيمانه ومنها موضوع الخلافة ، وأيضاً ما أسمى فى أدبيات ذلك الزمان بالتغريب أى التأثير بالفكر الغربى والحضارة الغربية وأيضاً مناهضة التبشير . وفيما يتعلق بالتغريب نراه وهو لم يزل فى السنة النهائية فى كلية دار العلوم وقد طُلب منه أن يكتب مقالاً يجيب على سؤال : كيف نتحدث عن الآمال الكبيرة التى تراودك بعد إتمام دراستك وبين كيف ستعد نفسك لتحقيق هذه الآمال " . فقال فى هذا المقال " إننى أعتقد إن شعبى قد ابتعد عن

أهداف إيمانه نتيجة للمرحلة السياسية التي مر بها ، والتأثيرات الاجتماعية التي تعرض لها وتحت تأثير الحضارة الغربية ، والفلسفة المادية والتقاليد الإفرنجية". أما الخلافة فقد تحدثنا عنها طويلاً ، لكن البناء ظل متأثراً بمقولات للشيخ عبد العزيز جاويز الذي اختلف مع محمد فريد في تحديد نزعة الحزب الوطني وحاربه بما أضعف الحزب كثيراً . ويقول فريد عن جاويز "إن حبة للدولة العثمانية قد أدى به إلى نسيان مصر وحقوقها ، فقد أصبح يقول أن مصر للمسلمين لا للمصريين ، وهو لم يزل يحارب فكرة الوطنية في الإسلام وقد قال أخيراً فى برلين لأحمد بك أن يقلع عن فكرة الوطنية أو الجنسية المصرية . قائلاً أنه لا وطنية فى الإسلام" [محمد صبيح - مواقف حاسمة فى تاريخ القومية العربية - ص ٣٨٩ - نقلاً عن مذكرات محمد فريد الخطية] والمثير للدهشة أن قيادات جماعة الإخوان الآن وعلى رأسهم د . محمد بديع المرشد العام لم يزلوا يتحدثون عن الخلافة ويؤكدوا سعيهم نحو العودة إليها ناسين ما قاله أحد الباحثين . معلقاً على استمرار الحديث فى هذا الأمر "أن ضعف الخلافة العثمانية ثم انهيارها على يد زعيم تركى هو أتاتورك قد دمر الأسس الواقعية والجغرافية الإسلامية وشجع وأسس للنزعات الوطنية والقومية".

[83 . M-The Arab world to day p. Beger]

* يلاحظ وهذا مثير للدهشة أن جماعة الإخوان احتفلت بعيد تأسيسها العاشر فى يناير

١٩٣٩ . ثم عادت لتحتفل بعيد تأسيسها العشرين فى سبتمبر ١٩٤٨ .

أما مسألة التبشير فقد التهمت بالفعل فى بداية الثلاثينيات .
والحقيقة أننى وعدد غيرى من الباحثين قد تصفحنا العديد من
صحف هذه الفترة بحثاً فى هذا الأمر فلم نجد إشارة واحدة إلى تحول
مسلم إلى المسيحية ، وإن كانت هناك إحياءات مبهمة عن اختفاء
عدد من الشبان وكلمات غامضة عن احتمال أن يكون ذلك بسبب
من تغيير الدين وحتى هذه الحالات كانت محدودة جداً . وإن كانت
هناك دلائل قوية حول عمليات نشطة لتحويل مسيحيين أرثوذكس
إلى الكاثوليكية والبروتستنتية جرت فى محافظات الصعيد الفقيرة
وخاصة المنيا وأسيوط والتي كانت مزدهمة بفقرى الأرثوذكس
وأزدحمت هذه الأماكن أيضاً بعيادات ومستوصفات ومستشفيات
تابعة للكاتوليك والبروتستانت وكذلك مدارس عديدة [الفريز -
الفرنسيسكان - الجزويت - السكركير ومدارس الإرساليات
الأمريكية البروتستنتية وعبر الخدمات المجانية أمكن استقطاب
عديد من الارثوذكس . ومن هنا يمكن القول أن أغلب عمليات
التبشير كانت اختراقاً كاثوليكياً وبروتستنتياً للأرثوذكسية . لكن
كثرة الحديث عن هذا الموضوع بهدف إثارة المشاعر الإسلامية
ومواجهة ما أسموه بالتغريب ، قد شجعت الحركة الصهيونية التى
تواجدت فى الجالية اليهودية للحديث عنها "فشنت جريدة
"اسرائيل" التى أسسها البرت موصيرى كجريدة صهيونية حملات
غوغائية استهدفت إشعال الفتنة الطائفية وبدأت فى نشر سلسلة
من المقالات بعنوان "كيف حاولوا تنصيرى" [إسرائيل - ١٧ يوليو

١٩٣١] ثم بدأت فى نشر معلومات لا يعرف أحد مدى صحتها لأنها كانت مبهمة بشأن قيام مدارس كاثوليكية بمحاولة تنصير طلاب يهود [إسرائيل ٣١ يوليو ١٩٣١] ولما لم تجد صدًى لهذه الدعاوى بدأت فى الحديث عن تنصير شبان مسلمين ولم تورد أية أسماء وبدأت حملة هجوم عاصفة على المسيحية" [إسرائيل ٥ فبراير ١٩٣٢] وينتـهـز البنا الفرصة محاولاً أن يركب الموجه فيوجه رسالة إلى "سدة صاحب الجلالة الملكية الملك فؤاد حامى حمى الدين ونصير الإسلام والمسلمين ملك مصر المـفـدى يتقدم أعضاء مجلس الشورى العام للإخوان المسلمين المجتمعون بالإسماعيلية والممثلون خمسة عشر فرعاً من فروع الجمعية بتاريخ ٢٢ صفر ١٣٥٢هـ برفع أصدق آيات الولاء والإخلاص لجلالتكم وسموولى عهدكم المحبوب ويلجأون لجلالتكم راجين حماية شعبكم اخلص من عدوان المبشرين على عقائده وأبنائه بتكفيرهم وتشريدهم وإخفائهم وتزويجهم من غير أبناء دينهم" ويكشف المؤرخالمعتمد للجماعة محمود عبد الحليم حقيقة المسألة فيقول بصراحة مشيرة للدهشة "ولولا حركة التبشير لما أستطاع حسن البنا أن يجمع على العمل الاسلامى هؤلاء الرجال الذين لم تكن تجمعهم جامعة ولا تربطهم رابطة، وجزى الله الشدائد كل خير" [محمود عبد الحليم - الإخوان المسلمون - أحداث صنعت التاريخ - الجزء الأول - ص٣٦] .. هكذا بدأ حسن البنا مستنداً الى هذه المقولات الثلاث الخلافة - التغريب - التبشير فى تأسيس جماعته . حدّاح

ونتابع ما كتبه حسن البنا فى بدايات رحلته السياسية، ونقرأ "كنت متألماً أشد الألم، فهذا إذا أرى إن الأمة المصرية العزيزة تتأرجح حياتها الاجتماعية بين أسلامها الغالى العزيز الذى ورثته وحمته وألفته وعاشت به واعتز بها أربعة عشر قرناً كاملة، وبين هذا الغزو الغربى العنيف المسلح والمجهز بكل الأسلحة الماضية الفتاكة من المال والجاه والمظهر والمتعة والقوة ووسائل الدعاية" [حسن البنا - مذكرات الدعوة والداعية - ص ١٥٥] (*) وفى كتابه أخرى نقرأ "إن الأمة مصابه من ناحيتها الفكرية بالفوضى والمروق والإلحاد، مما يهدم عقائدها ويحطم المثل العليا فى نفوس أبنائها فى ناحيتها الاجتماعية بالإباحية فى عاداتها وأخلاقها والتملل من الفضائل الإنسانية التى ورثتها من الغر الميامين من أسلافها، إن التقليد للغرب يسرى فى مناحى حياتها سريان لعباب الافاعى فيسمم دماءها ويعكر صفوها. بالقوانين الوضعية التى لا تزجر مجرماً ولا تؤدب معتدياً ولا ترد ظالماً ولا تغنى يوماً من الأيام غناء القوانين السماوية.. وهكذا تخرج الأمة من صفوف المجاهدين الى صفوف اللاهين اللاعبين" [حسن البنا - دعوتنا] ونتوقف أمام ألفاظ مثل المروق - الإلحاد - الإباحية - التقليد للغرب. رفض القوانين الوضعية.. لنكتشف إن كل ما يردده متطرفوا اليوم من السلفيين المتأسلمين قد استقوه من بئر كتابات الأستاذ البنا. ثم نقرأ "أيها الإخوان المسلمون، بل يا أيها الناس أجمعين من الحق أن نعترف بأن موجه قوية جارفة وتياراً شديداً دفاقاً قد طغى على

العقول والأفكار فى غفلة من الزمن ، وفى غرور من أُم الإسلام
ظهرت نظم وفلسفات وتأسست حضارات ومدنيات نافست فكرة
الإسلام فى نفوس أبنائها ودخلت بلداتهم وبيوتهم ومخادعهم .
فنشأ فى كل الامم الإسلامية جيل مخضرم إلى غير الإسلام أقرب ،
تصدر فى تصريف أمورها ، وإحتل مكان الزعامة الفكرية والروحية
والسياسية والتنفيذية ، فدفع بالشعوب مغافله لها إلى ما يريد وهى
لا تدري ما يراد بها" [حسن البنا - مجموعة رسائل الإمام الشهيد -
رسالة تحت راية القرآن - ص ٩٥] ويهاجم حسن البنا بعنف شديد
"الجامعة المصرية" والتيكانت فى ذلك الحين طاقة الضوء الأساسية
للمثقفين المصريين فيقول انها "قامت بثورة على الدين ، وهى تتسم
بالتوجه العلمانى والاندفاع نحو التفكير المادى المنقول عن الغرب
بحذافيره " . واتهم أساتذتها وطلابها "بالتحلل والانطلاق بعيداً عن
كل القيود ، كما ظهرت كتب وجرائد ومجلات كل ما فيها ينضح
بالدعوة للتحرر الذى لا هدف له إلا أضعاف أثر الدين أو القضاء
عليه فى نفوس الشعب ، لينعم فى زعم الكتاب والمؤلفين بالحرية
الحقيقية فكريباً وعملياً" [مذكرات الدعوة والداعية - المرجع
السابق ص ٤٩] .

وامتداداً لهذا الفكر كتب الكثيرون من الإخوان فى ذات الاتجاه ،
ووصل الأمر إلى شن حملات فكرية على قادة الحركة الوطنية
المصرية لأنهم إتجهوا بمصر نحو الاستقلال ، فيهاجم أحدهم مصطفى
كامل ومحمد فريد "لأن حركتهما كانت متجهه إلى كسب

الاستقلال [وكان فى ذلك عيب] وليس للعمل على رد الناس الى
أصول دينهم

وعلى ثورة ١٩١٩ "لأنها جاءت لتعترف فى إنهزامية فكرية
بسياسة الأمر الواقع من حيث النظام السياسى والاستسلام لجحافل
الغزو الفكرى والخلقى" [راجع على سبيل المثال - عبد المتعال
الجابرى - لماذا اغتيل الإمام الشهيد حسن البنا - ص ١٤].

والمثير للدهشة هو أن البنا ورجاله لم يهتموا على الإطلاق بتثقيف
رجال الإخوان. فحسن البنا كما قال مؤرخ الجماعة محمود عبد
الحليم سئل من أخوانه وعارفى فضله لماذا لا يؤلف كتاباً فى التفسير
أو الفقه وألخوا عليه فى ذلك، لكنه كان يقول: "دعونى من تأليف
الكتب فالمكتبة الاسلاميه متخمة بالمؤلفات، ومع ذلك فإنها لم تفد
المسلمين شيئاً حين قعدت همهم وثبطت عزائهم وركنوا إلى الدعة
والخمول والوقت الذى أضيعه [لاحظ لفظ أضيعه] فى تأليف،
كتاب أستغله فى تأليف مائة شاب مسلم يصير كل منهم كتاباً حياً
ناطقاً أرمى به بلداً من البلاد فيؤلفها كما ألف هو" [محمود عبد
الحليم- الإخوان المسلمون، أحداث صنعت التاريخ - رؤية من
الداخل - الجزء الثانى - ص ٣٤٥] ونمضى مع محمود عبد الحليم
لنقرأ "كانت الأجيال التالية مباشرة للرسول "أحسن منا حالاً
وأقرب الى الدين منا ومع ذلك قال عبد الله بن مسعود رضى الله
عنه أن القرآن أنزل إليهم ليعملوا به فاتخذوا من دراسته عملاً. وإن
أحدهم ليقرأ القرآن من فاتحته إلى خاتمته ما يسقط منه حرفاً وقد

اسقط العمل به" [المرجع السابق - ص ٥٥] وفي كتابه "رسالة التعاليم" يحدد حسن البنا واجبات الأخ المجاهد وعددها ٣٨ واجباً، ولا يورد فيها التعمق في دراسة التفسير أو الفقه وإنما الواجب ٢٥ يقول "إن تقاطع المحاكم الأهلية وكل قضاء غير إسلامي، كذلك الأندية والصحف والجماعات والمدارس والهيئات التي تناهض فكرتك الإسلامية مقاطعة تامة"، وفي البند ٣٧ يأمر العضو "أن تتخلى عن صلتك بأية هيئة أو جماعة لا يكون الاتصال بها في مصلحة فكرتك" [حسن البنا - رسالة التعاليم - ص ١٢] ويسير المفكرون الإخوانيون على درب أستاذهم فالدكتور على جريشة يقول "ولا خلاف في جهاد من منع بعض شريعة الله، وأولى به من منع كل الشريعة والقعود عن الجهاد تهلكه نهى الله عنها" [د. على جريشة - أصول الشريعة الإسلامية - ص ٤٩]. وكذلك الأستاذ عبد القادر عودة الذي قال بتكفير كل قائل بالقانون الوضعي. والغريب انه ظل وحتى آخر أيام حياته محامياً مرموقاً مترافعاً على أساس القوانين الوضعية. ونقرأ له "ومن الأمثلة الظاهرة على الكفر بالامتناع في عصرنا الحالى الامتناع عن الحكم بالشريعة الإسلامية وتطبيق القوانين الوضعية بدلاً منها" [عبد القادر عودة - التشريع الاسلامي الجنائي - الجزء الثاني - ص ٧١٠] ويقول "فمن أعرض عن الحكم بحد السرقة أو القذف أو الزنا لأنه يفضل غيره من أوضاع البشر عليه فهو كافر قطعاً [المرجع السابق - ص ٧٠٩] (*) وعلى هذا الدرب لم يزل كثيرون يسиров. وتزعم جماعة الإخوان

لأسباب سياسية صرفة رفضها لهم . دون أن تتجاسر على نقد حرف واحد مما كتبه حسن البنا . بل هى ملتزمة بكل ما قاله الإمام البنا وسيد قطب .. وإنما تتستر حتى تتمكن ، هذا عن الفكر فماذا عن الأفعال .. وخاصة الموقف من الإرهاب .

ولأننا أكدنا أكثر من مرة وعبر زمان طويل .. " أن الإرهاب يبدأ فكرا " . فقد كان من الطبيعي عندما يستخدم حسن البنا ضد خصومه ألفاظ التكفير والإباحية والعداء للدين ورفض الآخر أن ينعكس ذلك عمليا فى أعمال إرهابية ضد الكفار . ومن هنا تأتى مسئولية الكلمة التى لا يتوب عنها أصحابها على عاتق صاحب الرأى أو صاحب الفتوى . ولهذا كان الخلاف الشهير داخل صفوف الجماعة عندما طالب أحد القادة [يقال أنه د . عبد المنعم أبو الفتوح] بضرورة نقد ما ورد فى أدبيات الجماعة قديمها وحديثها من آراء متطرفة . لكن الجماعة رفضت وتمسكت بأن كل حرف نطق بيه حسن البنا يجب أن يبقى مصانا ومحترما وربما مقدسا . وعلى أية حال تحولت كلمات البنا إلى أفعال . ولأننا لسنا بصدد التأريخ للجماعة وهو ما فعلناه من قبل فأننا نكتفى بالتوجه المتأسلم فيها والمؤدى إلى إرهاب لم يزل يهددنا حتى الآن . ألم يقل له الذين كانوا أول من بايعوه فى الإسماعيلية " إنا لنشعر بالعجز عن تفهم الطريق إلى العمل كما تفهمه أنت ، ولا نعرف الطريق إلى خدمة الوطن والدين والامة كما تعرف أنت ، وكل ما نرغب فيه الآن هو أن نقدم لك كل ما نملكه حتى نصبح فى حل من المسئولية أمام الله ، ولكي

تصبح أنت مسئولا أمامه عما يجب أن نقوم به" [مذكرات الدعوة والداعية - ص ٧٣] وأستعيد الجملة الأخيرة لجرد التأكيد " لكى تصبح أنت مسئولا أمام الله عما يجب أن نقوم به " ولسنا نقول بأكثر من ذلك فإن قادة الجماعة القدامى والجدد والجماعة ذاتها ستظل مسئولة أمام الله عن كل فعل متأسلم إرهابى كان أو بذر للفتنه أو دعوة للتشدد هذا كله سيظل معلقا فى عنق الجماعة حتى تشهر توبتها عنه .

ونقارن ما قاله البنا ومن أتوا بعده وما فعله ويفعله رجالهم . فالذين يستخدمون آليات الخصومة الكلامية بأشد الألفاظ عنفا وبعدا عن اللياقة يتبعون قول حسن البنا لرجاله متحدثا عن السياسيين فى عصره "ستخاصمون هؤلاء فى الحكم وخارجة خصومه شديدة لديدة أن لم يستجيبوا لكم" [النذير - العدد الأول - مايو ١٩٣٨ - الافتتاحية بقلم حسن البنا] والتقلب فى المواقف هو أيضا درس لقنه البنا لتلاميذه . فبعد أن هاجم البنا الدستور هجوما شديدا وقال " أن فيه ما يراه الإخوان مبهماً غامضا يدع مجالا للتأويل والتفسير الذى يمكن من أعمال الأهواء" [رسالة المؤتمر الخامس] وإذ يغضب القصر الملكى من نقد الدستور يعود البنا متراجعا دون حذر مؤكدا "إن الدستور بروحه وأهدافه العامة لا يتناقض مع القرآن وأن ما نحتاج الى تعديل منه يمكن أن يعدل بالطريقة التى رسمها الدستور ذاته" [أنور الجندى - الإخوان المسلمون فى ميزان الحق - ص ٦٢] ويبدو أن هذا الاعتذار لم يكن

كافيا عند القصر الملكي فعاد حسن البنا ليقول "وما كان لجماعه الإخوان المسلمين أن تنكر الاحترام الواجب للدستور باعتباره نظام الحكم المقرر فى مصر، ولا أن تحاول الطعن فيه، ما كان لها أنتفعل ذلك وهى جماعه مؤمنة مخلصه تعلم أن إهاجة العامة ثورة، وأن الثورة فتنة وأن الفتنة فى النار [النذير - مقال لحسن البنا - العدد ٣٣] وهكذا فأن ما يحدث الآن من تصرفات ومواقف وتراجعات، كل ذلك معدود من أدبيات الجماعة وأسلوب تربيتها لرجالها. ومن الفعل الأرهابى أيضا: الفتوى، فالمفتى الإخوانى أو السلفى يطلق الفتوى كقذيفة ثم يتركها لتنفجر فى عقول ونفوس جرى تجهيزها لتقبلها والخضوع لمعطياتها: ونأتى لنموذج شديد الخطر، وهو الاجترأ المتطرف على الكنائس واستسهال عمليه الهجوم عليها وإحراقها وحتى الاعتداء على الكاتدرائية التى هى الرمز المقدس للأقباط ولمصر، لنجد أن هناك فتوى لازالت تتفاعل حتى الآن بل ويجرى تداولها فى الأوساط الإخوانية والسلفية.. ففى مجله "الدعوة" لسان حال جماعه الإخوان سؤال عن حكم بناء الكنائس فى الإسلام والفتوى جاءت على لسان مفتى المجلة الشيخ عبد الله الخطيب ونقرأ فيها "حكم بناء الكنائس فى ديار الإسلام على ثلاثة أوجه الأول: بلاد أحدثها المسلمون وأقاموها كالمعادى والعاشر من رمضان وحلوان وهذه البلاد وأمثالها لا يجوز فيها أحداث كنيسة. والثانى: ما فتحه المسلمون فى البلاد بالقوة كالإسكندرية بمصر والقسطنطينية بتركيا وهذه أيضا لا يجوز بناء هذه الأشياء [لاحظ

كلمة الأشياء] فيها وبعض العلماء قال بوجوب هدم ما وجد فيها من كنائس. والثالث: ما فتح صلحاً بين المسلمين وبين سكانها واختار هو إبقاء ما وجد بها من كنائس وبيع على ما هي عليه وقت الفتح، ومنع إصلاح أو إعادة ما هدم منها وواضح أنه لا يجوز إحداث كنيسة في ديار الإسلام" [الدعوة - عدد ديسمبر ١٩٨٠]. هذا هو الفكر الاخواني، وهو ينكر حتى تعاليم الرسول الكريم بالحفاظ على كنائس وبيع غير المسلمين وينكر أيضاً مواقف الحكام المسلمين ابتداء من عمرو بن العاص في زمن الخليفة عمر بن الخطاب وما بعده. وما يهمنا هو أن هذه الفتوى وجدت سبيلها ولم تزل حتى الآن بل وستظل إلى أمد، لينفذها البعض ويؤكد بأنه لا يجوز إحداث كنيسة في ديار الإسلام. ولست أدري من أين أتى المفتي الاخواني بهذه الفتوى ولا لأي مصدر أستند، سوى مصدر العداء للمخالفين في الرأي والموقف والعقيدة. ولست أدري ما هو موقف الحكومة الإخوانية من هذه الفتوى؟ ولا ماذا سيكون مصير أي طلب يجري التقدم به من جانب البطريركية لبناء كنيسة؟ وهل لهذه الفتوى علاقة بامتناع د. مرسى عن زيارة البطريركية، أو لها علاقة بالاعتداء على هذا "الشئ" الذي يسمى كاتدرائية؟ وسؤال آخر هل لهذه الفتوى علاقة بالامتناع عن إصدار قانون بناء دور العبادة الموحد وهل له علاقة بالقانون المريب الذي سبق إعداده أيام حكم المجلس العسكري وأيام كان إعداد القوانين في أيدٍ إخوانية أو شبه إخوانية. وهو قانون وضع خصيصاً بصياغات محددة تستهدف

أن يرفضه جميع المسلمين ويرفضه جميع المسيحيين .. فيبقى الحال على ما هو عليه .

وعلى أية حال فإن انعكاسات التعليمات والأفكار والأدبيات الإخوانية وجدت تنفيذاً عملياً لها في أفعال إرهابية تواصلت على يد الإخوان وجهازهم السرى ثم تمددت للتنفيذ على يدي جماعات الإرهاب المتأسلم في ثمانينيات وتسعينيات القرن الماضي . ولعلها لم تزل قائمة في أذهان وعقول الإرهابيين المتأسلمين حتى اليوم .

والحديث عن التكفير ومواجهة الإلحاد والتغريب يقتدرن بضرورة العنف كأداة لردع المخالفين ، وإذا كان الشيخ عبد الرحمن الساعاتي والد الأستاذ حسن البنا قد خاطب الإخوان قائلاً استعدوا يا جنود وليأخذ كل منكم أهبته ويعد سلاحه ولا يلتفت منكم احد وامضوا إلى حيث تؤمرون " ثم " صفوا لهذه الأمة الدواء وأعكفوا على إعدادة في صيدليتكم فكم على ضفاف النيل من قلب يعانى وجسم عليل ، ولتقم على إعطائه فرقة الإنقاذ منكم فإذا الأمة أبت فأوثقوا يديها بالقيود وأثقلوا ظهرها بالحديد ، وجرعوها الدواء بالقوة . وإن وجدتم في جسمها عضواً خبيثاً فاقطعوه أو سرطاناً خطيراً فأزيلوه .. فكثير من أبناء هذا الشعب في آذانهم وقر وفي عيونهم عمى " . [النذير - أول المحرم - ١٣٥٧ هـ] وبعدها بأسابيع كتب حسن البنا مؤكداً تعاليم أبيه وقائلاً " وما كانت القوة إلا كالدواء المر الذى تُحمل عليه الإنسانية العابثة المتهالكة حملاً ليرد جماحها ويكسر جبروتها وطغيانها ،

وهكذا كانت نظرية السيف فى الإسلام، ولم يكن السيف فى يد المسلم إلا كالمشرط فى يد الجراح لحسم الداء الاجتماعى " [النذير - رمضان - ١٣٥٧هـ] واستجاب الاخوان عبر منظومة سرية أقامها حسن البنا وأسُميت "النظام الخاص" وتولى مسئوليته محمود عبد الحليم ثم أسلمه الى عبد الرحمن السندى وقد أستند هذا الجهاز الى أفكار غاية فى التطرف مستمدة من فكر البنا ووالده. ولأننا سنتكلم فى موضوع شائك فإننا لن نورد حرفاً إلا منسوباً لواحد من قادة الجماعة. ونبدأ بكتاب للأستاذ محمد الصباغ وهو واحد من مؤسسى النظام الخاص. وما يلفت النظر هو أن الذى كتب مقدمة الكتاب الأستاذ مصطفى مشهور وهو أيضاً أحد مؤسسى الجهاز السرى وقد كتب هذه المقدمة وهو مرشد عام للجماعة وهذا له مغزاه. ونقرأ لمحمود الصباغ "يبدأ عضو الجهاز الخاص بالبيعة، يدخل غرفة مظلمة ويجلس على بساط فى مواجهة أخ فى الإسلام مغطى جسده تماماً برداء البيض ثم يخرج من جانبه مسدساً ويطلب من المبيع أن يتحسس وأن يتحسس المصحف الشريف ثم يقول له فإن أنت خنت العهد أو أفشيت السر، فسوف يؤدى ذلك إلى إخلاء سبيل الجماعة منك [أى قتلك] ويكون مأواك جهنم وبئس المصير" [محمود الصباغ - حقيقة التنظيم الخاص - ودوره فى جماعة الإخوان - ص ١٣٢]

ويمضى محمود الصباغ ليعطى لنفسه وأعضاء جهازه الحق فى القتل المباشر دون إذن من أحد فيقول "إن أعضاء الجهاز يمتلكون

الحق فى اغتيال من يشاءون من خصومهم السياسيين فكلهم قارئ لسنة رسول الله فى إباحة اغتيال أعداء الله " ونتأمل فالأخ يزعم أن الرسول أباح اغتيال مخالفه وهو عكس الحقيقة وهو يعتبر أن أعداء " الدعوة الأخوانية " أعداء للإسلام . بل أن الصباغ يقول " إن قتل أعداء الله [أى خصوم الجماعة بمنطقه هو] غيلة هو من شرائع الإسلام ، ومن خدع الحرب فيها أن يسب المجاهد المسلمين وأن يضلل العدو بالكلام حتى يتمكن منه فيقتله " [ص ١٣٨] وفى إطار الحديث عن الجهاز السرى هناك وثيقة هامة تحدث عنها المستشار عصام حسونة الذى كان وكيل النيابة المحقق فى قضية سيارة الجيب وهى القضية التى قبض فيها على قيادات الجهاز الخاص فى عام ١٩٤٨ وهى لائحة الجهاز السرى وفيها تعليمات من قيادة الجهاز للأعضاء مؤكدة " إن كل من يحاول مناوأة أيمنهم أو الوقوف فى سبيلهم مهدر دمه ، وأن قاتله مثاب على فعله ، وإن من سياستنا أن الإسلام يتجاوز عن قتل المسلمين إذا كان فى ذلك مصلحة " [عصام حسونة - ٢٣ يوليو وعيد الناصر - ص ٤٦]

وقيادة الجهاز السرى كانت تضم عبد الرحمن السندى - محمود الصباغ - أحمد زكى حسن - أحمد محمد حسنين ومعهم خمسة من أكبر قادة الجماعة وهم صالح عشموى ود . محمد خميس حميدة والشيخ محمد فرغلى ود . عبد العزيز كامل ود . محمود عساف وفوق هؤلاء جميعاً حسن البنا المرشد العام . ولعل من حق الجميع أن يعرفوا موقف الإخوان وخاصة قياداتها الأعلى من جرائم

القتل التى أرهبت بها الجماعة خصومها وكل الشعب المصرى - ونعود إلى كل من محمود عبد الحليم المؤرخ الرسمى للجماعة ومحمود الصباغ المؤرخ المعتمد للجهاز السرى فى روايتهما لقصة اغتيال المستشار أحمد الخازندار والروایتان متطابقتان فعندما قتل المستشار أحمد الخازندار - غضب فضيلة المرشد العام غضباً شديداً واستنكر الحادث علناً. والسبب أن فضيلة المرشد لم يستأذن قبل قرار الاغتيال خاصة وأن أحد المتهمين بالقتل كان سكرتيره الخاص، ولهذا تقرر تقديم السندى لمحاكمة داخلية فى إطار الجماعة.. ونقرأ "تشكلت المحكمة الاخوانية من فضيلة المرشد الأستاذ حسن البنا وصالح ع شماوى والشيخ محمد فرغلى والدكتور خميس حميدة والدكتور عبد العزيز كامل ومحمود الصباغ ومصطفى مشهور وأحمد زكى حسن حسنين ود. محمود عساف أى أكبر قادة الجماعة وأكبر قادة الجهاز الخاص وقال عبد الرحمن السندى أنه تصور أن عملية القتل سوف ترضى فضيلة المرشد لأنه سمعة يقول أن هذا القاضى يستحق القتل بعد أن سمع الحكم الذى أصدره على عدد من الإخوان، ولأن فضيلة المرشد يعلم عن السندى الصدق فقد أجهش فى البكاء ألماً لهذا الحادث الأليم [الصباغ - المرجع السابق - ص ٢٦٥] وبعد ذلك صدر الحكم وفيما يلى نصه "تحقق الإخوان من أن الأخ عبد الرحمن السندى قد وقع فى فهم خاطئ وفى ممارسة غير مسبوقة من أعمال الإخوان، ورأوا أن يعتبر الحادث قتل خطأ، حيث لم يقصد عبد

الرحمن ولا أحد من إخوانه سفك نفس بغير نفس وإنما قصدوا قتل روح التبльд فى بعض أفراد الطبقة المثقفة من شعب مصر أمثال الخازندار. ولما كان هؤلاء الإخوان قد ارتكبوا هذا الخطأ فى ظل انتمائهم إلى الإخوان المسلمين وبسببه إذلولا هذا الانتماء لما اجتمعوا على الإطلاق ليفكروا فى مثل هذا العمل أو غيره، فقد حق على الجماعة دفع الدية التى شرعها الإسلام كعقوبة على القتل الخطأ من ناحية، وأن تعمل الهيئة كجماعة على إنقاذ حياة المتهمين البريئين من حبل المشنقة بكل ما أوتيت من قوة، فدماء الإخوان ليست هدرًا يمكن أن يفرط فيها الإخوان فى غير فريضة واجبة يفرضها الإسلام. ولما كانت جماعة الإخوان المسلمين جزءاً من الشعب وكانت الحكومة قد دفعت لأسرته من مال الشعب عشرة آلاف جنية، فإن من الحق أن نقرر أن الديه قد دفعتها الدولة عن الجماعة، وبقي على الجماعة إنقاذ الضحيتين محمود زينهم وحسن عبد الحافظ" ولقد تعمدت أن أورد نص قرار اللجنة وهو بالقطع قرار هزلى ويعبر عن رضاء الجماعة على مبدأ القتل. أما القائلين فهما بريئين وضحيين (!).

ولأننا لا نريد أن نطيل فى هذا الأمر فهو واضح تماماً فإننا نكتفى بهذا المثال وإن كان من واجبنا أن نقرر أنه ما أن تصارع أعضاء الجهاز السرى مع بعضهم البعض، فإن كلاً منهم سارع للكتابة محاولاً أن يمنح نفسه أكبر قدر من شرف "الفعل الارهابى" وندعوا كل من أراد المزيد والاعترافات بتمجيد القتل دفاعاً عن

الدعوة قراءة هذه الكتب . فقط نريد أن نورد ملاحظة مؤسفة وهي أن الأستاذ البنا وبرغم كل ما سبق من محاكمة للسندى والحكم المشار إليه قال في معرض الدفاع عن الجماعة في كتابه الأخير "قول فصل" أن تهمة قتل الخازندار ألصقت ظلماً بالإخوان مجرد أن أحد المتهمين كان سكرتيراً له [حسن البنا - قول فصل] . أما كتابات الإخوان التي تمجد الإرهاب فهي :

- محمود عبد الحليم - الإخوان المسلمون - أحداث صنعت التاريخ - رؤية من الداخل - ثلاث مجلدات .
- أحمد عادل كمال - النقاط فوق الحروف
- الإخوان والنظام الخاص .
- صلاح شادى - حصاد العمر .
- الشهيدان حسن البنا وسيد قطب .
- محمود الصباغ - حقيقة النظام الخاص ودوره فى دعوة الإخوان المسلمين .
- عبد المنعم عبد الرؤوف - أرغمت فاروق على التنازل عن العرش .
- وفيهما ما يكتفى ويزيد عن تمجيد الإرهاب المتأسلم ووقائعه .